نافذة

الكورونا تصارع العولمة على طاولة الروليت!

أول ما هفّت رائحة «العولمة» في ثمانينات القرن الماضي صدف أن استضفت في عدة حلقات من برنامج تلفزيوني حواري كنت أقدمه على شاشة التلفزيون السوري مجموعة من كبار المثقفين السوريين والعرب حاولت معهم أن يجترحوا معنى يصل إلى الناس عن مفهومها ومعناها ومغزاها، ولا أذكر أنهم توافقوا أو اتفقوا فاجترحوا معنى أو مغزى يتوافقون على تعريف له يفيد المشاهد، فكان لكل واحد منهم اجتهاده في بدئها ومنتهاها وفتواه في مفهومها الغائم وفي تشابكاتها العنكبوتية، منه ما هو اقتصادي ومنه ما هو سياسي أو اجتماعي أو ثقافي، وما يكاد الحوار أن يتفق على العموميات حتى يعود فينفرط في الجزئيات فلَم يضف ذلك إلى مفهوم العولمة إلا تشويشاً وارتباكاً، ومنهم من ذهب إلى أنها تورم حميد لكوكب واحد يغرق في العسل، ومنهم من رأى فيها ورماً خبيثاً يتفشى في جسم هجين يتقاسمون فيه أجزاءه المتهالكة في خطة لئيمة غايتها اختراق هوياته والاستيلاء على قراره وطمس تاريخه وتفتيت جغرافيته، وبعد أن انتهى البرنامج وكان على الهواء همس في أذني أحد الضيوف أنه خرج من الحوار أكثر التباساً وإشكالاً حول العولمة وأصلها وفصلها ورثى لحال المشاهد الذي تحمل ثرثرة لاشك أنها سببت له عوارض الإسهال، ما استدعى هذه الخواطر إلى الذهن اليوم هو «الكورونا» ومشهد سيريالي لأكثر من مئة وخمسين دولة تتخبط في أخطر كارثة صحية اجتماعية أخلاقية وإنسانية وكلٌ «ربي نفسي» النجاة لي ومن بعدي الطوفان يريد النجاة بنفسه ولو على عكّاز من قصب.

لقد عصفت الكورونا ببورصات العالم وكسرت أضلاع أسهمه ودحرجت براميل نفطه وأصيبت الصناعة والتجارة والسياحة والفنادق والمطاعم والمصارف والطيران والجامعات والمدارس والمؤسسات بكل فعالياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية والترفيهية والرياضية وبكل أشكالها وأنشطتها بسهام الكورونا فأربكتها وعطّلتها وقد تصل إلى المؤسسة الأسرية تؤخر زيجات وشهور عسل، فصالات الأفراح أغلقت أبوابها ونصحتهم أن يفتحوا هذه المرّة برميل العسل بالمقلوب، وكادت تشعل حرباً غير معلنة بين أميركا والصين وأتباعهما تغلفها شكوك وأوهام وارتياب وتكهن وتخمين قد تفتح أبواباً صعب أن تغلق، وتغرق كل فسطاط منهما في نظريات المؤامرة والمؤامرة المضادة وتهيج السكن وتصمت المتحرك والمستفيد يتفرج. لقد انكشفت كما ضوء الشمس هشاشة العولمة وأن العالم ليس واحداً بل هو شعوب ودول وثقافات متباينة ومتباعدة، بلمح البصر يمكن أن تنكفئ على نفسها، همها توفير حتى الحد الأدنى من العيش لشعوبها قبل أن تعصف بها الشرور من خارجها كحجارة من سجيل. مشهد عجائبي يفرط وبلا صفارة إنذار عقد العولمة الذي حسب أصحابه أنه عنقود عنب ونسوا أن عنقود العنب إن وقع بيد سارقه يفرط قبل أن تصل حباته إلى حلقه.

الكورونا هيجت الحواس الغافية لاستطلاع الجوانب غير المرئية من المشهد السريالي وكشفت ورقة التوت عن عورة العولمة وانتهكت عذريتها وأجهضت الحمل غير الشرعي قبل أن يقيد الفاعل ضد مجهول، ضاعت منها البوصلة، كل سفينة فيها تصارع الموج الصارخ للوصول إلى شاطئ ترسو فيه، وقد يمر وقت قبل أن يصحو العالم على حقيقة أن الكورونا لم تحصد فقط الآلاف من البشر في عالم ظنوه واحداً وهو زُمر وأنفار لكنها حصدت معه وإلى غير رجعة العولمة التي أرجعوا يوماً نسبها إلى جنكيز خان إلى هشيم لن يخلّف إلا هباباً وشيئاً من رماد.

د. منير الجبّان

الكورونا وباء قرئ في الروايات حتى انقلب السحر على الساحر

من الطاعون إلى الكوليرا إلى كورونا رحلة الأدب مع الأمراض واقعية ومتخيلة

| جُمان بركات

الكوارث تحل تباعاً في أزمة الصحة العالمية من انتشار وباء الكورونا حيث تقفز الأخبار كل دقيقة على الشاشات العالمية معلنة عن مصاب هنا ووفاة هناك وإجراءات استثنائية تأخذها جميع دول العالم واحدة تلو الأخرى. وليس وباء الكورونا الخطير الذي يرعب ويجتاح بلداناً وأصقاعاً إلا نموذجاً من الأوبئة الشهيرة التي غزت التاريخ وأحدثت هزات عنيفة في الحياة الجماعية، متخطية التخوم الجغرافية والسياسية، مخلفة وراءها مآسي ما برحت محفورة في الذاكرة العالمية. في هذه الأجواء كان مرحباً بالدخول إلى عقول الكتّاب والتنزه في حديقة خيالهم، ومعرفة كيفية تصويرهم الكوارث قبل وقوعها على الورق وكيف تخيلوها والمعنى الإنساني الذي ظهر بين السطور.

في البداية يجيب أحد كتاب الخيال العلمي عن سر الإقبال على قصة يمرض فيها الجميع تقريباً ويموتون، بأن الحديث عن هذه الأزمات في الكتب يشبه استحضار الأرواح، فبهذه الطريقة، يمكنك قتال تلك الأرواح. لكن أن تستحضر من خلال كتاب شيء وأن تحيا هذا الكابوس شيء آخر، يقول أحدهم كنت أقرأ أو أحضر هذا الشيء الذي نعيشه اليوم على الشاشة، لكن أن ينقلب السحر على الساحر فهو شعور مخيف، وباء كورونا الذي يحتل أجساد العالم، ويهدد دولاً عديدة أيضاً يأخذ الحيز الأكبر من أحاديثهم، فتعود ذاكرة البعض إلى ما قرؤوه عن هذا الوباء وكيف تنبأ الكثير من الكتاب به أو استحضروه في رواياتهم وأفلامهم.

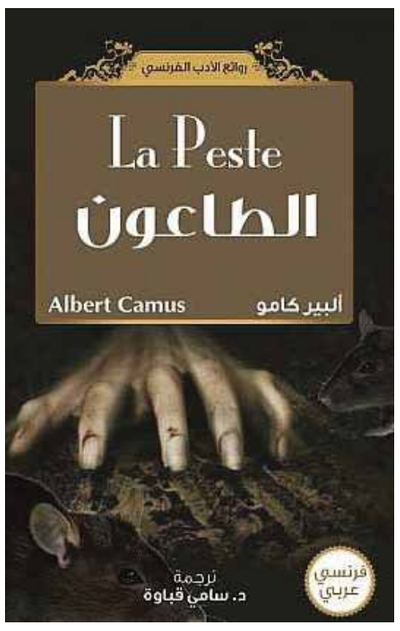

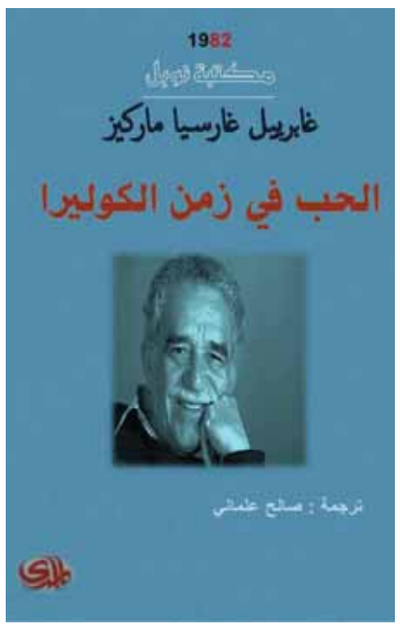

الطاعون

ومع اتساع نطاق الخطر من المرض المعدي الجديد، قارن كثير من النقاد بين ما يجري حالياً وما سجله ألبير كامو عام ١٩٤٧ في روايته الشهيرة «الطاعون» التي نشرت بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تجبرنا الرواية والتأمل في أحداث «الطاعون» على التفكير في مسؤولياتنا تجاه الناس من حولنا، وتطرح الصراع بين السعادة الفردية والالتزام الأخلاقي تجاه المجموع عبر هذه الأحداث الحية التي تتضمن تكريس الطبيب ريو نفسه لمقاومة الطاعون والتضامن مع ضحاياه واستعداده للتضحية في سبيل ذلك. وتبدو خلاصة رواية كامو وكأن «النضال المشترك هو ما يجعل المجتمع ممكناً»، ويبقى درس «الطاعون» هو أننا يجب أن ننظر إلى أنفسنا كأعضاء في المجتمع لا كأشخاص يعيشون حياة فردية منفصلة عن الآخرين، إذ يجبرنا الوباء على التفكير، لا في أنفسنا فحسب، وإنما في كيفية تأثير أفعالنا على الآخرين.

الحب في زمن الكوليرا

منذ انتشار فيروس الكورونا، والناس تتبادل جملة «الحب في زمن الكورونا» في استبدال لرائعة الكولومبي غابريل غارسيا ماركيز «الحب في زمن الكوليرا» –الرواية الحائزة على جائزة نوبل تروي أحداث الرواية قصة حب رجل وامرأة منذ المراهقة، وحتى بعد بلوغهما السبعين وتصف ماتغير حولهما ومادار من حروب أهلية في منطقة الكاريبي، وحتى تغيرات التكنولوجيا وتأثيراتها على نهر مجدولينا في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر حتى العقود الأولى من القرن العشرين، كما أنها ترصد بدقة الأحوال في هذه المنطقة من العالم من حيث الأحوال الاقتصادية والأدبية والديموغرافية من دون التأثير على الأحداث وسيرها الدقيق ما يضعنا أمام كاتب يمسك بأدواته على أحسن ما يكون.

عيون الظلام

«هناك فيروس يحمل اسم ووهان ٤٠٠ تسبب في اندلاع مرض»، هذه جملة دونت في رواية صدرت في الثمانينيات لكاتب أميركي، تروي أحداثها أن هناك معملاً عسكرياً صينياً في ووهان ينتج فيروساً كسلاح حيوي، سرعان ما يصاب المدنيون بالعدوى عن طريق الخطأ الأمر الذي ربطه البعض بانتشار فيروس كورونا. صدرت رواية «عيون الظلام» عام ١٩٨١، وفضلاً عن كونها رواية من روايات الرعب، فأحداثها تتشابه مع أحداث الواقع الراهن بشكل مثير للدهشة، إذ فبالرغم من أنها كُتبت قبل ٣٩ عاماً فإنها تفاجئ كل من يطالعها بقدرتها الرهيبة على التنبؤ بالمستقبل، إذ تتحدث عن فيروس ينطلق من مدينة ووهان الصينية ويتفشى سريعاً بشكل خارج عن السيطرة، وهو بالضبط ما حدث منذ عدة أشهر، مع ظهور فيروس كورونا في هذه المدينة الصينية تحديداً، قبل أن ينتشر خارج الحدود ويصير خطراً عالمياً متنامياً.

وقد اشتهر الكاتب الأميركي دين كونتز دوماً برواياته التي تحمل طابع التشويق والغموض، وتمزج أحياناً بين الرعب والفانتازيا والخيال العلمي، وصنفت بعض أعماله في قائمة نيويورك تايمز لأعلى الكتب مبيعاً، ومن غرائب الصدف أن المختبر الذي تتحدث عنه روايته، يقع على بعد ٢٢ كيلومتراً فقط من مركز تفشي فيروس كورونا المستجد، ما أدى إلى سرعة التساؤلات حول كون الرواية قد تنبأت بالأحداث أم هي مصادفة غريبة؟

«شربة الحاج داوود»

في عام ٢٠١٤ طرح الروائي المصري الراحل د. أحمد خالد توفيق كتاب «شربة الحاج داود» وهو عبارة عن مجموعة من مقالات طبية وعلمية بصياغة روائية، تناول حينها الكاتب المصري تأثير فيروس كورونا (المتلازمة التنفسية الخاصة بالشرق الأوسط الناجمة عن كورونا) في صورته الأولية التي ظهرت قبل ٨ سنوات تقريباً، وقال عن إمكانية وصول الفيروس إلى مصر واستعرض من خلال هذه الرحلة الظروف الصعبة التي تعيش فيها شريحة كبيرة من المصريين، وفي النهاية يموت الفيروس فيقول في روايته: «فجأة ساد حر رهيب، وارتفعت الحرارة إلى حد غير مسبوق، بعد هذا أدرك الفيروس البائس أن الأمر يتكرر خمس مرات يومياً»، وتابع: «بعد قليل عرف أن وعيه ينسحب، الحياة تتسرب منه، سقط، لقد قضت مصر على الفيروس، كما ترى أنا مطمئن، هذا الفيروس الرقيق الواهن سوف يصاب بالتسمم ويموت، فلا مكان له في مصر، لا داعي للقلق».

«العدوى»

أعاد الفيلم الأميركي «العدوى» إلى دائرة الضوء من جديد، بعد مرور أكثر من ٨ أعوام على عرضه، وأصبح فجأة ضمن قائمة الـ١٠ أفلام الأكثر مبيعاً على منصة «iTunes»، وذلك حسب صحيفة «الغارديان» البريطانية، وصحف عالمية أخرى.

وشعر الجمهور بأن الفيلم تنبأ بالأحداث الحالية، إذ إنه يحكي عن فيروس ينشأ في الصين بسبب الخفافيش وينتشر بسرعة كبيرة، وهو ما يتطابق مع مسيرة نشوء وانتشار فيروس «كورونا» المميت.

فيلم «العدوى» الذي أخرجه ستيفن سودربيرغ عام ٢٠١١، واحد من الإنتاجات الفنية التي رسمت على نحو مثير للاستغراب قصة فيروس يظهر أول مرة في هونغ كونغ وينتقل من خفاش إلى خنزير إلى أحد الطهاة الذي يقتني الخنزير وينقل العدوى لمواطنة أميركية، كانت في زيارة عمل، عن طريق المصافحة لتنقله الأخيرة لأسرتها عند عودتها لبلادها فينتشر وباء الفيروس ويقع ضحيته آلاف الأشخاص ويصاب به الملايين عبر العالم.

يبدو سيناريو الفيلم مماثلاً إلى حد بعيد جداً لسيناريو فيروس كورونا المستجد، ذلك أن الشبهات حول هذا الأخير تحوم حول كون مصدره هو سوق للحيوانات البرية في ووهان، كما أن الأعراض التي تظهر على المصابين متشابهة أيضاً مع انتشاره على نطاق واسع، إضافة إلى الجهود الوطنية والدولية التي تبذل من أجل الوقاية من الوباء والأبحاث المكثفة التي تجري للعثور على لقاح فعال، كل هذه المصادفات جعلت الحديث عن قدرة السينما على التنبؤ بالمستقبل، بحسب كثير ممن شاهدوا الفيلم، أمراً ذا مصداقية، كما جعلت فيلم «العدوى» نفسه يحقق قفزة في عدد المشاهدات بعد ظهور فيروس كورونا، سواء داخل الولايات المتحدة أم خارجها.

التجربة الجمالية في شعر نزار قباني

في يوم ميلاده السابع والتسعين.. كان شجاعاً حتى الرمقِ الأخير

| أحمد محمّد السّح

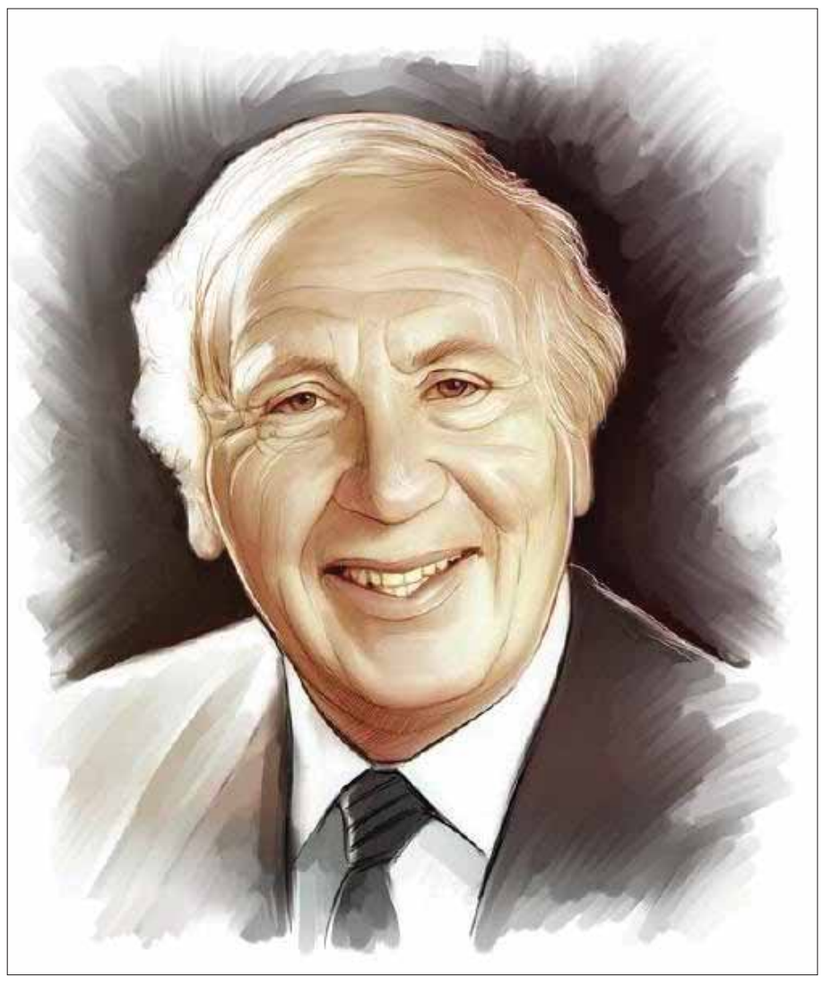

يمكن في كل عام في هذا اليوم ونحن نتذكر الأمهات، أن نتذكر الرجل الذي أعطى شعره كلهُ لنُصرةِ المرأة حتى اقترن لقبه كشاعرٍ بها، فلم يرفض ولم يتوان بل اعتبر هذا الأمرَ مشروعه الشعري والجمالي، وحافظ على ذلك طوال حياته التي امتدت زهاء ثلاثة أرباع القرن.

نزار قباني الذي ولد في الحادي والعشرين من آذار عام ألف وتسعمئة وثلاثة وعشرين، وتوفي في الثلاثين من نيسان عام ثمانية وتسعين، لم يكتشف الشعر متأخراً، لا بل يمكن القول إنه أراد أن يكون شاعراً، واتخذ الأمر قراراً، فحزم أمتعته ومشى في درب الشعر، ونال الشهرة الأوسع والجماهيرية الأعلى، فكسر القيود المفروضة على الشعر ووصل إلى كل الناس بلغته وأفكاره وكل ما حلم به.

يعرف الناس اليوم نزار قباني من خلال الأغنية العاطفية وبعض ما شاع من قصائد ترنم بها المغنون والمغنيات، ولكن كثيرين اليوم تناسوا الرحلة الطويلة والانعطافات الحادة التي قادها نزار قباني في قصيدته الشعرية التي عمل على الاشتغال عليها وهو في سن صغيرة قد يكون واحداً وعشرين عاماً مع ديوانه الأول «قالت لي السمراء»، وهنا نتعرف إلى نزار الشاعر، المتأثر بشكل واضح بالشعراء الرمزيين والوجوديين، أو وفقاً للمصطلح العربي المتأثر بالشعراء المهجريين، وهنا لا أقصد البنية الشكلانية للقصيدة على الإطلاق، فهذا الديوان بمجمله يأخذ شكل القصيدة العمودية باستثناء قصيدة واحدة اسمها «اندفاع»، لكن المتقاطع هو الموضوعات وآلية تناولها مع أنها في مجملها عاطفية إلا أنها تعتمد خلطة «الجمالي الحسي – الجمالي الرمزي» من دون الخوض بمستويات أخرى في القصيدة أو من دون أن يمتلك كامل الشجاعة للمغامرة، واستمرت هذه الحالة في ديوانه «طفولة نهد» وهو الديوان الثاني له، لكن الانقلابة الشعرية حصلت مع ديوانه «أحلى قصائدي» الذي انتزع فيه نزار الغطاء عن كنزه الشعري كاملاً، ونثره على الملأ ليقدم واحداً من أشهر الدواوين في الشعر العربي الحديث، ليكون حديث الناس لسنوات ويتم اختيار معظم قصائده تقريباً لتكون أغاني يتكئ عليها المغنون في نجاح أغنياتهم.

وفي هذا الديوان نتعرف إلى قصائد مشهورة ومغناة منها «اختاري– رسالة من تحت الماء – نهر الأحزان – طوق الياسمين– قارئة الفنجان – خمس رسائل إلى أمي– وقصيدته ذائعة الصيت التي أشعلت البرلمان السوري يوماً خبز وحشيش وقمر»، وربما هنا يتساءل الكثيرون لماذا اشتهر نزار قباني من دون سواه من الشعراء؟ وهنا يمكن تقديم عشرات الإجابات وكلها صحيحة، في الإجابة الأولى نتعرف إلى مفهوم الشهرة أو الجماهيرية النزارية، لتفتح وجع العلاقة بين الكتاب الشعري والقراء، فصحيح أن نزار قباني كان أكثر الشعراء السوريين والعرب حظاً في تهافت القراء على كتبه ولكنها بالمجمل، هي كتب قليلة العدد من حيث عدد النسخ، فنزار قباني الذي يعرفه الوطن العربي من المحيط إلى الخليج لم تكن طبعة دواوينه الشعرية أكثر من ثلاثمئة نسخة شأنه في ذلك شأن أي شاعر مغمور. وهنا نقول إن شهرة نزار لم تكن شهرة قراء إنما شهرة تتعلق بالحالة المجتمعية والزمنية التي ظهر فيها نزار قباني في بداية انطلاقته، وهو من المؤكد أنها أفضل من حيث الظروف لتلقي الشعر منها اليوم، أضف إلى كاريزما نزار ومستوى حياته الجمالية واعتماده لغة الغزل الطيبة في كل ما يتحدث، وهنا نستذكر ما قاله الماغوط عنه في كتابه الأخير «شرق عدن غرب الله» في رثاء له، إذ يقول بما معناه «إن مشكلة نزار قباني أنه كتب عن العالم كله ومشكلاته بأحمر الشفاه» وهي حقيقة تحتمل النقد اللاذع وفي المقابل تقدم نزار الأسطورة الذي لم ينكفئ ولم يتغير بل حافظ بالوقت نفسه على مستواه الشعري والسلوكي، وفي محاكمته للأشياء، فقد هرب نزار قباني من التنظير والحسابات وكان يغريه أن يقال عنه شاعر، وليس فيلسوفاً أو مفكراً.

في كتب نزار قباني الفكرية والنثرية لا يمكن إلا أن يندفع الشعر في وجهك، فقصيدة نزار الملونة تملأ عينيك أينما قرأتا، فنزار يرى السمكة زرقاء، والعصفور أخضر، والقمر برتقالياً، وهذه بما يخص اللونية تجدها مكتوبة في تجربته الشعرية طوال حياته، فهو شاعر لم يتخلّ عن عدته الجمالية التي ابتكرها وحافظ عليها.

والعدة الجمالية لنزار لم يسبقه إليها أحد من حيث التصوير وتشكيل المفردة وآلية التعامل مع المفردة، كما في كلمة «سيدتي» أو كلمة «نهد» أو سواها من الكلمات التي اعتمدها قباني وسارت الدرب الشعري معه وفقاً لمفهومه وصارت بصمته اللغوية التي لم يتخل عنها، حتى يمكن القول بسهولة إن القصيدة النزارية يمكن تمييزها عن غيرها من القصائد بسهولة وإن أي شاعر يقترب من أدوات نزار قباني ويحاول أن يستعملها فهو سيفقد خصوصيته ويتحول إلى شاعر ينحل الشعر عن قباني، مع أن محمود درويش مثلاً قال يوماً من الأيام «من لم يتعلم الشعر من نزار قباني فليرفع إصبعه»، وبالتالي فإن التعلم من نزار لا يعني على الإطلاق الاقتراب من مساحته التي تأخذك في تيهها الجمالي لتجعل منك نسخةً من دون أصل، والأصل هو نزار والقصيدة في واحدة من تجلياتها تقمصت روح نزار.

سبعة وتسعون عاماً على ميلاد نزار قباني وربما بعد سنوات قليلة سنحتفل بمئوية ميلاده على الطريقة التي تحتفل بها الدول المتقدمة بعظمائها ومفكريها وشعرائها، فهل يا ترى أعددنا العدة لنقول لنزار إننا حققنا لك شيئاً مما تحلم، هل توقفت جرائم الشرف في مجتمعنا؟ وهل توقفنا عن قوننتها؟ هل بات الشعر قنديلنا الذي نستضيء به؟ أم صار التريند التجاري هو ما نعتاش عليه؟ هل صار المغنون أفضل ومقدمو البرامج أذكى؟ هل صارت السياسة والسياسيون أصدق؟ وهل فلسطين بخير؟ أعتقد أننا سننكس رؤوسنا طويلاً أمام ما حذر منه نزار قباني لأننا لن نلحق على الإطلاق في تحقيق ولو جزء يسير من أحلامه وتطلعاته، بل لعلنا سنخفي عنه الكثير من الفظائع التي ارتكبناها بأنفسنا وبمدننا وبشامنا لأن الجمال كان يؤذينا فلم نصمت في حرمه، بل خربناه وابتسمنا للكاميرا.